مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 56 (خريف 2003)، ص 66

في الذاكرة

إحسان عباس والتراث العربي

رضوان السيد*

أولاً: قلتُ في مراجعتي لكتاب إحسان عباس "عبد الحميد بن يحيى الكاتب وما تبقى من رسائله ورسائل سالم أبي العلاء": "يفاجئنا أستاذنا الكبير الدكتور إحسان عباس كل عام تقريباً، ومنذ ما يناهز الأربعين عاماً، بجديد أصيل في مجالات شتى من ثقافتنا العربية والإسلامية؛ دراسةً أو تحقيقاً أو هما معاً في الأدب والنقد الأدبي، وفني الشعر والنثر، والتاريخ، وأدب التراجم، والفكر السياسي، والنصوص الفقهية. وأول جديده للعام 1988 كان كتابه الرائع عن عبد الحميد بن يحيى أشهر كتّاب الديوان في العصر الأموي الثاني، وأحد مؤسسي النثر الفني العربي."[1]

أول عمل نعرفه لإحسان عباس في التحقيق، تحقيقه لرسالة أبي العلاء المعري في التعزية سنة 1950. وهو نص عَسِرٌ شأن سائر نثريات أبي العلاء وشعرياته. لكن، هذا هو إحسان عباس منذ البدايات، يقتحم الصعب والمجهول، والغامض، والمُراوغ، في النصوص والأحوال، وفي القديم والحديث. وقد تعامل إحسان عباس مع التراث العربي، والعربي الإسلامي، بأربعة أشكال:

الأول، تحقيق النصوص، في شتى مجالات التراث التي ذكرتها في مراجعتي لكتابه عن عبد الحميد؛ **الثاني**، اتخاذ التراث أساساً أو مصدراً للدراسة في كتاباته في التاريخ – تاريخ الأدب، والنقد الأدبي، والتاريخ السياسي القديم؛ الثالث، الاعتماد على المؤلَّفات التراثية، وفي أدب السمر بالذات، لدراسة التواصل والتثاقف الحضاري، بانتقال الأفكار، وتقابُسها، وترحُّلها، واستقرارها، وتحولاتها؛ الرابع، استلهام التراث التاريخي والنقدي والسياسي، لقراءة القطائع والتحولات الحادة في التاريخ الثقافي العربي، وفي الحاضر الثقافي العربي.

في المجال **الأول**، أخرج إحسان عباس كماً هائلاً من النصوص التراثية في شتى مجالات التدوين الثقافي العربي القديم. وفيما عدا النصوص المتعلقة بالعلوم العربية (مثل الطب والهندسة والكيمياء) وعلم الكلام والفلسفة، ما ترك إحسان عباس مجالاً

---

* أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة اللبنانية.

(1) مجلة "الاجتهاد" (بيروت)، العدد الخامس، 1989.

صَغُر أو كبُر واتّسع إلاّ وأصدر في نطاقه نصوصاً قديمة نُشرت من قبل نشرات غير علمية أو لم تنشر. وقد أقبل في البداية على مشاركة زملائه وأساتذته – كما هو شأننا جميعاً في سن الشباب – في إخراج النصوص، من مثل خريدة القصر للعماد الأصفهاني (بالاشتراك مع أستاذيه أحمد أمين وشوقي ضيف)، ومن مثل فصل المقال في شرح كتاب الأمثال (بالاشتراك مع عبد المجيد عابدين)، ومن مثل جوامع السيرة لابن حزم الأندلسي (بالاشتراك مع ناصر الدين الأسد)؛[2] ثم استقل منذ مطالع الستينات بإخراج النصوص المحقّقة منفرداً مهما طالت أجزاؤها وتعددت، مثل وفيات الأعيان لابن خلّكان، في ثمانية أجزاء (1968 – 1972)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقّري التِّلِمْساني (1968) في ثمانية أجزاء أيضاً، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (1974 – 1979) في ثمانية أجزاء أيضاً وأيضاً، والتذكرة الحمدونية لابن حمدون (بالاشتراك مع شقيقه بكر) (1 – 8، 1997)، ورسائل ابن حزم الأندلسي (1 – 4، 1980 – 1983)، والجليس الصالح الكافي للمعافى بن زكريا النهرواني (1 – 3، 1987)، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي (1993، في سبعة أجزاء).

على أن تحقيقات عباس الكثيرة للنصوص القصيرة والطويلة، لا تعني تضاؤلاً في تركُّز الاهتمامات. صحيح أن هناك تحقيقات عارضة – إذا صح التعبير – لكن كان لدى إحسان عباس اهتمامات استراتيجية بمجالات تراثية معينة تابعها طوال حياته الأكاديمية والعلمية. من أمثلة اهتماماته العارضة جَمْعُه مع صديق عمره دراسةً وزمالةً محمد يوسف نجم لنصوص عن ليبيا في كتب التاريخ والجغرافيا والرحلات (1968)،[3] وتحقيقه لكتاب الخراج للقاضي أبي يوسف (1985)، وفهرس الفهارس والأثبات للكتّاني (1 – 3، 1982، 1986). أمّا النصوص عن ليبيا فقد دفعه وصديقه نجم إليها صلتُهما الحسنة بناشر ليبي. وقد أزعجه نص كتاب الخراج، لأنه نص فقهي، لا تتوافر له أصول مخطوطة جيدة، وقد طُبع عدة مرات من قبل بأخطاء كثيرة، ولا يمكن العودة حتى إلى نصوص المذهب الحنفي لمقارنة نصوصه، لأنه مبكّر جداً؛ لكنه تجاوز تلك التحديات بنجاح، وكتب مقدمة دراسية عن كتب الخراج، واقتصاديات الدولة الإسلامية – وهي موضوعات غريبة عليه – باقتدار يغبِطُه عليه المختصون، كما ذكر لي الدكتور عبد العزيز الدوري. ودفعه صديقه الناشر التونسي الحبيب اللمسي إلى نشر الفهارس والأثبات للكتّاني، وهو نص معقد في رجال الحديث وعلومه، تتخلله نقولٌ مراوغة من كتب قديمة ضائعة. ولا يحب عباس أن يتجاهل اقتباساً من دون أن يذكر مصدره؛ ولذلك فقد اقتضاه ذلك جهداً هائلاً كان يفضل إنفاقه في التأليف أو

(2) شارك أيضاً محمد يوسف نجم وأنيس فريحة ومحمود زايد في ترجمات عن الإنكليزية.

(3) نشر أيضاً: تاريخ ليبيا، 1967.

التحقيق في المجالات التي يحبها.

أمّا المجالات الاستراتيجية – إذا صح التعبير – التي تابعها عباس في تحقيق النصوص ونشرها، فيمكن تلخيصها بالتالي:

أولاً: المجال الأندلسي. وقد بدأه بنشر رسالة لابن حزم سنة 1955 في مكتبة الخانجي بالقاهرة. وهو لا يفرّق في النصوص الأندلسية بين الأدب والتاريخ والتراجم والنوادر. لكنه أَمْيَل إلى النصوص الأدبية الشعرية والنثرية. وحجته في ذلك، ليس الميل المزاجي فحسب، بل أيضاً لأن الدارسين الآخرين من المستشرقين الإسبان، والمصريين، والمغاربة، عُنُوا بالنصوص التاريخية، أكثر مما عُنُوا بالنصوص الأدبية الأندلسية الشعرية والنثرية، لعسرها، والتباس أصولها. ظل إحسان عباس طوال حياته مهتماً بالأندلسيات، لكن أكثر إنتاجه التأليفي والتحقيقي فيها ظهر فيما بين الخمسينات والسبعينات من القرن الماضي. اهتم بنثر ابن حزم، وسائر تآليفه، من نشر رسالة له سنة 1955، إلى جوامع السيرة سنة 1958، والتقريب لحد المنطق سنة 1959، وصولاً إلى نشر رسائله كلها في أربعة مجلدات بين سنة 1980 وسنة 1983.[4] وإذا أمكن اعتبار الأمثال العربية من جنس النثر، فإن عباساً نشر أولاً (بالاشتراك) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لأبي عبيد البكري الأندلسي (1958، 1972)،[5] باعتبار الشارح أندلسياً، وإن غلب على شرحه فقه اللغة، وليس النثر الفني. ثم أعاد نشر نفح الطيب للمقّري، وهو موسوعة في أدب أهل الأندلس نثراً وشعراً وتراجم.

بيد أن عباساً كان أكثر اهتماماً بالشعر في الأندلس وخارجها. وقد بدأ اهتمامه التحقيقي بالنشرات العلمية لدواوين الأندلسيين والصقليين، مثل ابن حمديس الصقلي (1960)، والرصافي البلنسي (1960)، والأعمى التطيلي (1963)، والكتيبة الكامنة للسان الدين ابن الخطيب في أشعار الأندلسيين (1963)، والتشبيهات من أشعار أهل الأندلس لابن الكتّاني (1966)، وتحفة القادم لابن الأبّار (1986)، ومعجم الشعراء الصقليين (1995). على أن ذروة ما حققه عباس في مجال الشعر الأندلسي، كان ولا يزال كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني؛ إذ يتضمن إلى التراجم أكبر مجموعات ومختارات أشعار أهل الأندلس. وهذا العمل التحقيقي فريد في بابه من حيث الإتقان في قراءة الشعر، والتمرس بتمحيصه، وتحقيق نسبته، ومقارناته، مما لم يعرفه تاريخ الدراسات الأندلسية إلى اليوم.

وفي مجال نصوص التراجم الأندلسية نشر إحسان عباس عدة أجزاء من الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، بالإضافة إلى ما تضمنته الكتيبة الكامنة لابن الخطيب، وما تضمنه نفح الطيب من تراجم للأدباء والشعراء الأندلسيين، وما تضمنته

(4) ما عَرَض عباس لكتابي ابن حزم الكبيرين: المحلّى (في الفقه)، والملل والنحل (في العقائد).

(5) نشر أيضاً من كتب الأمثال: الأمثال للضبي (1980).

تحفة القادم من تراجم للأدباء والشعراء الصقليين، ومعجم العلماء والشعراء الصقليين الذي صدر سنة 1995.[6]

لكن، على أهمية النصوص التي نشرها إحسان عباس عن الشعر والنثر في صقلية والأندلس، فإنها كانت تابعةً على حواشي دراساته عن الأندلس وصقلية أو عن تاريخهما الثقافي والأدبي في عصورهما الحضارية الزاهرة.[7] وسنعود إلى تلك الدراسات التأليفية فيما بعد.

ثانياً: دواوين الشعر العربي المشرقي والنصوص النثرية العربية، مثل ديوان لبيد بن ربيعة، الشاعر المعروف، وأحد أصحاب المعلّقات (1962)، وشعر الخوارج (1963)، وديوان الصنوبري (1970)، وديوان كُثيّر عَزَّة (1971). وقد سألتُه لماذا اختص الشاعر المعروف بلقب القتّال الكلابي بجمع شعره ونشره (1961)، على الرغم من عدم أهميته، فقال أنه أراد إجراء تجربة في جمع شعر شاعر عربي قديم ضاع ديوانه، عن طريق العودة إلى المجموعات الشعرية القديمة التي تورد مختارات من شعر القدماء، وما كان راضياً عن التجربة، وإن عاد إليها في جمع شعر الخوارج، الذي أدخل عليه تنقيحات كثيرة في نشرات زادت على الخمس. ولا يمكن القول هنا، مثلما ذكرنا من قبل في نشر الأندلسيات والصقليات، إنه حقق هذه الدواوين على حاشية اهتمامه بدراسة تاريخ الشعر العربي، أو تاريخ النقد العربي؛ إذ لم يستعمل الدواوين المذكورة كثيراً في كتابه العظيم عن نظرية الشعر، ونقد الشعر، عند العرب. لكنني أعرِف منه أن جمعه لشعر الخوارج اهتمام قديم لديه، يعود إلى عمله على النثر الديني لدى الحسن البصري (– 110هـ) (1952)، وقد أراد بعدها أن يتأمل هذا الإبداع بدوافع دينية، في الشعر، فجمع شعر الخوارج، من تقييدات وتتبع، كما كانت عادته، على مدى عقد من الزمان (1952 – 1962).

وهناك شخصيات قليلة من الشعراء والأدباء الكلاسيكيين، كان إحسان عباس مفتوناً بها، من مثل أبي حيان التوحيدي والشريف الرضي والوزير المغربي وعبد الحميد الكاتب والمؤرخ الأندلسي أبي مروان ابن حيان وأبي العلاء المعري وأبي بكر ابن العربي.[8] وينفرد أبو العلاء بين هؤلاء بأن نصوصه كانت فتنة وتحدياً للأستاذ عباس. فقد نشر رسالته في التعزية سنة 1950، ونشر الجزء الأول من رسائله سنة 1982، ولا أدري لماذا لم يكمل هذا العمل على غير عادته؛ لكن ربما عاد ذلك إلى سوء الأصول أو نقصها وضياعها. وقد أوصله أبو العلاء المعري إلى الوزير المغربي، بسبب الرسائل المتبادلة بينهما؛ ولذلك فقد نشر ما تبقى من كتاباته النثرية محقَّقاً سنة

(6) نشر أيضاً في الجغرافيا والبلدانيات: الروض المعطار في خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميري (1975).
(7) نشر أيضاً: الكافي في البيزرة (بالاشتراك مع عبد الحفيظ منصور، 1983).
(8) مجلة "الأبحاث"، 1963، ص 217 – 236؛ 1968، ص 59 – 91.

1987، ونشـر ما تبقى من رسـائل عبد الحميد الكاتب سـنة 1988. وكان متردداً في القيام بكتابة عمل عن نشـوء النثر الفني العربي، الذي يسـميه بعضـهم النثر الديواني. وكان يزعجه التقسيم المدرسي لتطور النثر لدى أساتذته في جامعة القاهرة: طه حسين وشـوقي ضـيف وأحمد الشـايب وأحمد أمين، من الخطابة إلى الكتابات الديوانية. وقد خطر له أن هذا التقسـيم التطوري المنحى ليس سـليماً منذ درس نثر الحسـن البصـري، وعلائقه بالقرآن الكريم، وبالبيئات الدينية والزهدية البصرية. ولذلك فقد كانت أعماله التحقيقية في مجال النثر توثيقاً للتأريخ النقدي الذي يريد القيام به. لكنه، ولعدة أسباب، انصرف إلى دراسة نظرية الشعر ونقد الشعر. وقد قال لي مرة إن نظرية النقد العربي القديم تأسـسـت على نقد الشـعر تأثراً بموقعه في الوعي والثقافة لدى العرب، وبسبب ترجمة كتاب الشعر لأرسطو؛ ولذلك فهو يرى أن الأَولى البدء بالشعر. وجادلتُه بأن العرب ترجموا ولخصوا ودرسوا أيضاً كتاب الخطابة لأرسطو، وأثَّر ذلك في نظرية البلاغة عندهم، فابتسم وقال: لقد اهتم بذلك طه حسين وشوقي ضيف وأحمد ضيف ورئيف خوري. وشكا، في مناسبة أُخرى، ضياع الكثير من الأصول النثرية. وذكر أخيراً في مقدمة كتابه عن عبد الحميد أن تلميذته الدكتورة وداد القاضـي (الأسـتاذة في جامعة شيكاغو منذ سنة 1989) تنوي القيام بدراسة النثر العربي المبكّر (وقد كتبتْ فعلاً عدة مقالات عن نثر عبد الحميد في التسعينات من القرن الماضي).

ثالثاً: كتب التراجم وموسوعاتها. وقد شغلت إحسان عباس لأعوام طويلة. بدأ ذلك بنفح الطيب الذي سبق ذكره، ضمن أولوية الأندلسيات لديه؛ لكن الاهتمام بالتراجم والسـير – وهو الفن الذي اختص به المثقفون العرب على اختلاف فئاتهم حتى مطالع القرن العشـرين – سـايره على مدى أشـمل في طِوال النصـوص وقِصـارها، من مثل وفيات الأعيان لابن خلّكان، وذيله فوات الوفيات لابن شـاكر، وانتهاء بمعجم الأدباء لياقوت الحموي، الذي حقق كشفاً فيه عندما لاحظ أن مارغليوث خلط في نشره له بين كتابين من كتب ياقوت: معجم الشعراء، ومعجم الأدباء. ورجع عباس في إعادة النشر إلى مخطوط ظهر في عُمان. وقد قلتُ له مازحاً عندما كان مهموماً بنشـر كتاب الخراج لأبي يوسف: لماذا تتعب نفسك في نشر هذا النص الفقهي، الذي يقع خارج اهتماماتك؟ فأجاب: مَنْ قال لك ذلك؟ ألم أنشـر من قبل؛ طبقات الفقهاء لأبي إسـحق الشـيرازي؟[9] وقد أفصح وقتها عن سر اهتمامه بكتب التراجم؛ قال لي: إن النخبة العالمة في عصور الثقافة العربية الزاهرة، كانت تتأمل ذاتها ودورها أو أدوارها، من خلال تدوين التراجم والطبقات، باعتبار ذلك مرآة لها، وتعبيراً عن مرجعيتها في تحمُّل العلم وتداوله وتوارثه في بيئات مفتوحة، تستند تراتبيتها إلى التطوير والإنجاز. والواقع أن

(9) طبقات الفقهاء لأبي إسحق الشيرازي، 1970. وله دراسة مهمة عن نوازل ابن رشد ودلالاتها الاجتماعية والثقافية، في مجلة "الأبحاث"، العدد 2، 1999، ص 3 – 63.

هذه الفكرة قديمة لدى الأستاذ عباس؛ فقد ظهرت في كتابه الصغير البالغ الدلالة: فن السيرة، سنة 1956.

رابعاً: كتب التاريخ ونصوصه. نشر إحسان عباس جزأين من كتاب أنساب الأشراف للبلاذري (1980)، ضمن مشروع المعهد الألماني في بيروت لإعادة نشر الكتاب كله في تحقيق جديد. كما نشر الجزء الأول من مرآة الزمان لِسِبْط ابن الجوزي (1985)، ونشر تخريج الدلالات السمعية للخُزاعي (1986)، وشذرات من كتب مفقودة (1988). وكان يميز النص التاريخي الإسلامي من نصوص الطبقات والتراجم؛ بأن الأول جزء من آيين أو مرجعية الدولة، بينما التراجم تعبير من جانب العلماء عن مرجعيتهم هم. وكان لديه اهتمام كبير بإعادة نشر **العِبَر** مع **مقدمته** طبعاً، لابن خلدون. وقد رأى دائماً أن نص ابن خلدون لم يُخْدَم كما يجب، وكما يستحق. لكن مخطوطات المقدمة والتاريخ الكثيرة، والتي يصعب توفيرها وجمعها، حالت دون البدء بالمشروع.

خامساً: كتب أدب السَمَر: والتسمية لي؛ فهي كتب تنتمي إلى نوع أدبي أو جنس أدبي، تورد أقوالاً مأثورة واقتباسات وأشعاراً وخواطر شخصية، وفصولاً تاريخية، يدونها أديب موسوعي، مقسَّمة على أبواب وفصول، تضم ما يمكن تسميته اليوم: الثقافة العامة. وقد نشر عباس في نطاقها كتابين كبيرين هما: التذكرة الحمدونية (1983، 1997)، والجليس الصالح (1987).

أمّا **الشكل الثاني** من الأشكال الأربعة لتعامل إحسان عباس مع التراث العربي، فيتمثل في اتخاذ النصوص التراثية مصادر لدراساته للتاريخ الثقافي العربي، والتاريخ السياسي والاجتماعي العربي. كان إحسان عباس عندما يريد كتابة دراسة معينة يُقبل على تتبع مصادرها المخطوطة والمطبوعة. حتى إذا استوفاها وكتب الدراسة، عاد فحقق أهم تلك النصوص المخطوطة، أو المطبوعة إذا كانت طبعاتها غير علمية. وطريقته في ذلك صعبة ومضنية. فكثيراً ما يقوم بنسخ المخطوط الذي يريد استعماله في دراسة معينة، ثم يعيد النظر فيه بعد انتهاء الدراسة وينشره. وإذا كان المصدر مطبوعاً كتب تقييدات وملاحظات وتصحيحات كثيرة على هوامش الصفحات، ثم يعمد إلى تحقيق الكتاب مستعيناً بما قام به في أثناء عمله على دراسته. ويمكن ملاحظة ذلك في ثلاثة مشاريع تأليفية هي:

1) دراساته أو مؤلفاته عن صقلية والأندلس، وهي: العرب في صقلية (1959)، وتاريخ الأدب الأندلسي (1 – 2، 1960، 1962). فقد استخدم في تلك الدراسات مصادر تراثية مخطوطة، ما لبث أن أقبل على تحقيقها ونشرها عبر عقدين، من مثل نفح الطيب السالف الذكر، ودواوين الشعر الأندلسي، والذخيرة لابن بسام، وكتب لسان الدين ابن الخطيب، والتشبيهات لابن الكتاني، والذيل والتكملة لابن المراكشي، وتحفة

القادم لابن الأبّار.

2) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر (1971). لا يزال هذا الكتاب أهم ما كُتب في أي لغة عن نظرية النقد العربي. وقد استخدم عباس في كتابته عشرات الكتب المخطوطة، ومئات الكتب والرسائل المطبوعة. وهذه المصادر التراثية كلها استعان بها ثم عمد إلى تحقيق بعضها، وإلى تصحيح أو نقد نشرات البعض الآخر إذا رأى الاكتفاء بذلك. لكنه لا يعود إلى النصوص النقدية مثل الآمدي أو الجرجاني، أو إلى دواوين الشعر ومجموعاته فحسب، بل يرجع أيضاً – مستعيناً بثقافته الموسوعية – إلى المقتبسات والعبارات ذات المنحى النقدي في الكتب الأُخرى المطبوعة أو المخطوطة، من مثل رسائل الجاحظ وأبي حيان التوحيدي أو ابن أبي الإصبع المصري أو حازم القرطاجنّي أو فن الشعر لأرسطو، في النص الذي نشره شكري عياد للترجمة القديمة، أو في ترجمته هو له عن الإنكليزية.

3) والمشروع الكبير الثالث، الذي عاد فيه كثيراً إلى نصوص التراث العربي، هو تاريخه لبلاد الشام في ستة أجزاء، والصادر عن الجامعة الأردنية على مدى عشر سنوات. وهو يبدأ عشية ظهور الإسلام، معتمداً على المصادر البيزنطية، حتى مشارف العصر العثماني. وهو يتخذ من التاريخ السياسي إطاراً، لكنه يؤرخ في الحقيقة للعمران بالمعنى الخلدوني. ولأن طريقته غير مألوفة، وما سبق العمل بحسبها كثيراً في التاريخ العربي الوسيط، فهو يعود بالإضافة إلى كتب التاريخ والتراجم، إلى الكتب الأدبية، وكتب أدب السمر، والجغرافيا، والرحلات، وحتى كتاب الأدوية المفردة لابن البيطار. ومن آثار عمله على المصادر في أثناء كتابة التاريخ نشره لشذرات من كتب مفقودة (1988)، ولفصول عن الحياة العمرانية والثقافية في فلسطين (1993)، ولتاريخ دولة الأنباط (1987)، وترجمته للفصل العاشر من كتاب جونز (Jones) عن مدن بلاد الشام في العصر الروماني.

أمّا **الشكل الثالث** من أشكال تعامل عباس مع التراث، فيتعلق بدراسة التثاقف وتبادل الأفكار، فيما بين الثقافات الكلاسيكية، والثقافة العربية، كما تبادُل المقابسات والأفكار والأدوات، بين فئات المثقفين العرب والمتعرِّبين. وقد بدت اطلاعاته الهائلة الاتساع في كتابه الطريف والقيّم: ملامح يونانية في الأدب العربي (1978). درس عباس في الكتاب السبل الخفية والمراوِغة لانتقال الرؤى الأدبية النثرية والشعرية بين اليونان والعرب، من خلال الرجوع إلى كتب النثر والشعر والسمر العربية، وليس إلى كتب الترجمات الفلسفية. وقد عثر على مئات الاقتباسات والاستلهامات في شتى الفنون والمجالات، وراقب تحولاتها وتناصّها وإعادة تكوينها واستعمالها. وعمل الشيء نفسه في مقدمته لنشر رسائل عبد الحميد، وفي مقدمته لرسائل ابن حزم. فحتى رسالة عبد الحميد في أدب الحرب، ورسالته الأُخرى عن الصيد، لهما أصول

واستلهامات بيزنطية. أمّا ابن حزم في "طوق الحمامة" فعنده استلهامات أفلاطونية. وغني عن البيان مدى تأثير نظرية أرسطو في الشعر، في نظرية الشعر العربية، والتي دار عباس من حولها طويلاً، مذ قام بترجمة "فن الشعر" إلى العربية (1950)، وترجمة "دراسات في الأدب العربي" لغرنباوم (بالاشتراك، 1959).

والشكل الرابع الذي يفيد فيه إحسان عباس من التراث العربي، يتصل بفكرة التزامن واللاتزامن والمفارقات والقطائع المعرفية. وقد اهتم عباس بذلك في وقت مبكّر، حين درس الإدراكات المختلفة بل المتناقضة لشخصية الحسن البصري وأثره في التراث الإسلامي (1952). فالمتصوفة لا يهتمون بغير بياناته الزهدية، والقدرية لا يعرفون غير رسالته لعبد الملك بن مروان في نفي القدر؛ بينما يعرف المفسّرون خصوصيات قراءته للقرآن فحسب. واعتماداً على النصوص النثرية والشعرية ذاتها التي عرفها الآخرون، أعاد عباس دراسة شخصيتي أبي حيان التوحيدي (1956)، والشريف الرضي (1959)، فتوصل إلى نتائج مختلفة تماماً تقع فيما وراء الانطباعات السائدة. ومن أجل ذلك بالذات نشر عهد أردشير (1967)، الذي ترك آثاراً في البيئة الدينية والسياسية العربية مختلفة تماماً عن موقعه في العهد الساساني. والأمر نفسه يمكن قوله عن نص "سرور النفس بمدارك الحواس الخمس" للتيفاشي (1980).

ثانياً:

لماذا هذا الاهتمام الموسوعي والنهضوي والنقدي؛ كل ذلك معاً، لدى إحسان عباس؟ وما هو معنى التحقيق والعناية بنشر مخطوطات التراث العربي، وما موقع إحسان عباس وجيله في هذه العملية؟

نشأ إحسان عباس، وتكوّن علمياً، بين الكلية العربية في القدس، وجامعة القاهرة. وفي كلا الموطنين كان هناك نزوع نهضوي مقرون بالمزيد من الإحساس بالهوية، وبالانخراط في العالم في الوقت نفسه. ولو تأملنا جيل الأساتذة الذين درس معهم إحسان عباس، لتبين لنا أنهم كانوا يملكون التوجهات ذاتها، وإن اختلفت قدراتهم وكفاياتهم ومواطن تركيزهم: طه حسين وعزام وأحمد أمين وأمين الخولي والعبّادي وزكي نجيب محمود وعبد الرحمن بدوي وأحمد الشايب والخشّاب والسقا وشوقي ضيف. يشترك هؤلاء في النزوعين النهضوي والإنساني، وفي الانفتاح على الكلاسيكيات اليونانية والأوروبية والعربية، في الوقت نفسه. ولكل منهم أعمال تحقيقية في التراث العربي القديم، ودراسات حوله، وفي السياق نفسه إفادة من التيارات الجديدة في أوروبا فيما بين الحربين. وكما عرف إحسان عباس وزملاؤه في الجامعة هؤلاء الأساتذة – ويبدو أن أحمد أمين كان الأقرب إلى قلب إحسان عباس

بينهم[10] – عرفوا أيضاً نخبة من كبار المستشرقين، ومن شبابهم، كانت تأتي إلى جامعة القاهرة للإفادة والاستفادة. ويتذكر البروفسور وينفرد مادلونغ – الأستاذ المشهور في الدراسات الكلاسيكية العربية والإسلامية – أنه تعرف إلى إحسان عباس طالباً في الدراسات العليا أواخر الأربعينات، وأنه كان يعلّمه اللاتينية، في مقابل تعليم عباس له العربية. وأذكر أنه عندما كان إحسان عباس يؤلف كتابه "ملامح يونانية في الأدب العربي" (1977 – 1978)، كان يردد على مسامعي فقرات كاملة لا يزال يحفظها غيباً من هوميروس وفرجيل وحافظ الشيرازي والخيام، يقول أنه عرفها في الكلية العربية بالقدس، وفي جامعة القاهرة. وعندما كان يضع الأجزاء الأولى من كتابه في "تاريخ بلاد الشام"، جمع كل المصادر المتعلقة بالقرنين الخامس والسادس للميلاد في منطقة المشرق، عن طريق الاقتناء، والاستعارة، كعادته في الاستقصاء الذي لا استقصاء بعده. وكان منزعجاً لنسيانه نصوصاً من بروكوبيوس، ولعدم قدرته على قراءة نصوص اللغة السبئية أو العربية الجنوبية باللغة الأصلية.

انفتاحٌ، ونَهَمٌ معرفيٌّ، وهمٌّ نهضويٌّ، وإيمانٌ بالأمة ونهضتها، وانخراطها في العالم، واعتزازٌ بتراثها وحضارتها، وقدرتها على التواصل والتقدم والمشاركة والندية. كل ذلك أفضى به وبآخرين كثيرين من زملائه وأبناء جيله إلى الاندفاع في التجديد العلمي والأكاديمي، وإلى الإقبال على إخراج نصوص التراث القديم، من أجل إعادة كتابة تاريخنا الثقافي بالمناهج الجديدة، ومن أجل تخليد تلك النصوص، لا باعتبارها مرشداً في الحاضر والمستقبل، كما يريد الإحيائيون السلفيون، وإنما باعتبارها جزءاً أساسياً في ماضينا السياسي والثقافي والرمزي. على أن إخراج النصوص القديمة له **مستويات** أيضاً، مثلما كان له الشيء ذاته في حركة النهوض الأوروبي. **هناك الفكرة** أو الرؤية التي حملها الإنسانويون الأوروبيون عن الماضيين الإغريقي والروماني. و**هناك التقنيات** العلمية المتعلقة بإعادة تكوين النصوص وتركيبها وتحقيبها وتحقيقها وتحريرها، ثم الإقبال على دراستها أو إعادة قراءتها في السياقات الجديدة. والحق أن أبناء الجيل الثاني، أي جيل طه حسين وأحمد أمين وزكي نجيب محمود، عملوا على الفكرة أكثر، بينما عمل الجيل الثالث، جيل إحسان عباس، أكثر على التقنيات، أي نشر النصوص، وإعادة قراءتها، وكتابة تاريخ ثقافي للأمة، يتخطى الاتجاهات والمسلّمات العامة، أكثر دقةً وموضوعية.

يقف إحسان عباس أمام النص التراثي التاريخي أو الأدبي وقفة مزدوجة واعية لذلك الازدواج والتجاذب. هو مهتم إلى أقصى الحدود بإخراج نص ابن حزم أو نص أبي العلاء، مثلاً، أقرب ما يكون إلى ما تركه المؤلف نفسه. ولذلك يجمع كل المخطوطات الموجودة للكتاب أو الرسالة. ثم يعمد إلى نسخ النص، بخطه الجميل الدقيق والصغير

(10) إحسان عباس، "أحمد أمين، طريقته في الكتابة والتأليف"، مجلة "الأبحاث"، العدد 4، 1955، ص 487 – 496.

إن أمكن، ومقارنته بسائر الأصول التي وجدها. ثم يتتبع المصادر التي يمكن أن تكون قد نقلت عنه قديماً بحيث يلاحظ الثوابت والمتغيرات وأشكال الاقتباس. وهو خلال ذلك كله يعيد قراءة كل عبارة في النص عشرات المرات، ليصل إلى شبه يقين واطمئنان إلى سلامة النص، فيدفعه إلى المطبعة، ويظل يصححه ويراقبه أسبوعين أو ثلاثة قبل نزوله إلى السوق. هذه هي الوقفة الأولى. أمّا الوقفة الثانية، أو القراءة الثانية، فتتمثل في دراسة النص نفسه دراسة نقدية، في بنيته وتركيبه وتوجهاته الكبرى، ووضعه في سياقه الزمني والتاريخي، وتتبُّع التناصّ السابق واللاحق، ورصفه أخيراً في تيارات التاريخ الثقافي العربي الكبرى. وهو يضع تلك القراءة الناقدة في مقدمة النص المطبوع (كما فعل مع رسائل ابن حزم وآثار عبد الحميد والوزير المغربي)، أو في آخره (كما فعل مع وفيات الأعيان، والذخيرة)، أو يكتب عنه دراسات مستقلة (كما فعل في دراساته عن النقد الأدبي بالأندلس،[11] ثم في قراءته لفكر ابن حيان التاريخي،[12] وابن رضوان السياسي،[13] على الرغم من أنه ما أخرج نصوصهما).

كان المستشرقون هم الذين نشروا النصوص العربية التراثية الأولى والأساسية (بين سنة 1850 وسنة 1935). وجاء الجيلان العربيان الأول والثاني فبدآ بتكوين مدرسة عربية في التحقيق والدراسة. لكن الجيل الثالث، جيل إحسان عباس، هو الذي وصل بالأمر إلى ذروته: بالإتقان في تحقيق النصوص وإخراجها (بل وتصحيح ما أخرجه المستشرقون)، وبكتابة الدراسات المستقلة، ونشر القراءات المستقلة، والمشاركة في الأطروحات الكبرى المُساوِقة لصعود الفكرة القومية، والدولة العربية. بيد أن إحسان عباس تقدم بين زملائه وأبناء جيله بالإنتاج الكمي والنوعي؛ لا في الدراسات التراثية والتحقيق التراثي فحسب، بل أيضاً في دراسات النقد الأدبي، والنقد المقارن، ونظرية الشعر الحديث. فقد كان رائداً في دراسة الشعر العربي الحديث (البياتي والسيّاب ونازك الملائكة)، وفي نظرية الأدب، ونظريات النقد وتياراته. كما تميّز بهذا التفرغ المنقطع النظير للدراسة والتدريس. فهو في المجال العربي الحديث نموذج للأستاذ الجامعي، كما فهمه هومبولت: الجامعة تدريس وبحث.

زرتُه في عمّان قبل وفاته بستة أشهر. كان خارجاً من المستشفى، وقد ضعف بصره، بحيث ما عاد يستطيع القراءة وقتاً طويلاً. سألني عن الرسالة التي وجهها المثقفون الأميركيون إلى العرب والمسلمين، يدعونهم فيها إلى مشاركتهم في "الحرب العادلة" على التطرف الإسلامي، والتي نشرتها مجلة "الاجتهاد"، ونشرت ردوداً عليها.

(11) مجلة "الأبحاث"، 1959، ص 509 – 528، وكتاب الأدب العربي في آثار الدارسين (دار العلم، 1961)، ص 254 – 290.

(12) مجلة "الفكر العربي"، 1982، ص 199 217.

(13) في كتاب العيد (الجامعة الأميركية، 1967)، ص 99 – 154.

ولخّصتُ أفكارها الرئيسية له فما اكتفى، بل طلب مني أن أقرأها له من الترجمة التي نشرتها المجلة. وقلت له: هل التفاصيل مهمة إلى هذا الحد؟ فقال باسماً: مَثَلي ومثلك كمثَل أبي يوسف مع يحيى بن آدم صديقه، وصاحب كتاب يحمل اسم كتابه نفسه: "الخراج". اختلف أبو يوسف مع يحيى بشأن مسألة في الميراث، وافترقا عدة أشهر. ثم جاء يحيى لزيارة أبي يوسف وهو على فراش المرض، فسأله أبو يوسف: هل وجدتَ حلاً للمسألة التي اختلفنا فيها؟ فقال يحيى: ليس ذلك مهماً الآن! وقال أبو يوسف: ألأنك تظن أنني سأموت؟! لأن أموت وأنا عالم بها، خير من أن أموت وأنا جاهل بها!

رحم الله إحسان عباس، الباحث النادر، والأستاذ الجامعي المتفاني، ورائد الدراسات الكلاسيكية العربية، والإنسان الكبير، ومُلهم أجيالنا في زمن من الانهيارات الكبرى، باتجاه المعرفة المحرِّرة، والإيمان بالأمة وموروثها ومستقبلها.■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf